الباب الـ ابع في أن القـ آن مـ ضمن لأدوية القلب وعلاجه من جميع أمـ اضه

قـــال الله تعـــالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [سورة يونس:٥٧] وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [سورة الإسراء:٨٢] وقد تقدم(١) أن جماع أمراض القلب هي أمراض الشبهات والشهوات، والقرآن شفاء للنوعين، ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل، فتزول أمراض الشبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك، بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه، وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية -من التوحيد وإثبات الصفات وإثبات المعاد والنبوات ورد النحل الباطلة والآراء الفاسدة- مثل القرآن، فإنه كفيل بذلك كله، متضمن له على أتم الوجوه وأحسنها، وأقربها إلى العقول، وأفصحها بياناً، فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبه والشكوك/(٢)، ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه، فمن رزقه الله ذلك أبصر الحق والباطل عياناً بقلبه، كما يرى الليل والنهار، وعلم أن ما عداه من كتب الناس وآرائهم ومعقولاتهم بين علوم لا ثقة بها؛ وإنما هي آراء وتقليد، وهي(٣) ظنون كاذبة لا تغني من الحق شيئاً، وبين أمور صحيحة لا منفعة للقلب فيها، وبين علوم صحيحة قد وعّروا الطريق إلى تحصيلها، وأطالوا الكلام في إثباتها، مع قلة نفعها، فهي(٤) ((لحم جمل غث، على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقل))(٥)، وأحسن ما عند المتكلمين وغيرهم فهو في

---

(١) في بداية الباب الثالث من الكتاب.

(٢) (٢١/ب).

(٣) في النسختين: [وبين].

(٤) في (ش): [فهم].

(٥) جزء من حديث أم زرع المشهور الذي روته عائشة رضي الله عنها وأخرجه البخاري في كتاب النكاح باب حسن المعاشرة مع الأهل ح(٤٨٩٣) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة رضى الله تعالى عنهم باب ذكر حديث أم زرع ح(٢٤٤٨)، قال أبو عبيد في غريب الحديث (٢/٢٨٩-٢٩٠) "قول الأولى: ((لحم جمل غث)) تعني: المهزول ((على رأس جبل وعر)) تصف قلة خيره وبعده مع القلة، كالشيء في قلة الجبل الصعب لا ينال إلا بالمشقة، لقولها ((لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقى)) تقول : ليس له نقي وهو المخ...ومن رواه :

القرآن أصح تقريراً، وأحسن تفسيراً، فليس عندهم إلا التكلف والتطويل والتعقيد، كما قيل(١):

لولا التنافس في الدنيا لما وُضعت كُتبُ التناظرِ لا المغني ولا العُمَدُ
يُحَلِّلون بزعم منهم عُقَداً وبالذي وضعوه زادت العُقَدُ

فهم يزعمون أنهم يدفعون بالذي وضعوه الشبه والشكوك، والفاضل الذكي يعلم أن الشبه والشكوك زادت بذلك، ومن المحال أن لا يحصل الشفاء والهدى والعلم واليقين من كتاب الله وكلام رسوله؛ ويحصل من كلام هؤلاء المتحيرين(٢) المشككين(٣) الشاكين، الذين أخبر الواقف على نهايات إقدامهم بما انتهى إليه من مرامهم، حيث يقول(٤):

نهايةُ إقدامِ العقولِ عقالُ وأكثرُ سعي العالمينَ ضلالُ
وأرواحنا في وحشةٍ من جُسومنا وحاصلُ دنيانا أذىً ووبالُ
ولم نستفدْ من بحثنا طولَ عُمْرِنا سوى أنْ جَمَعْنا فيهِ قيلَ و[قالوا](٥)

((فينتقل)) فإنه أراد ليس بسمين فينتقله الناس إلى بيوتهم فيأكلونه ولكنهم يزهدون فيه"، وانظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين (٢٩٦/٤)، وهذه من عبارات شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ المشهورة في وصف العلوم التي اشتغل بها الفلاسفة والمتكلمون كما في مجموع الفتاوى (٢٢/٢) (٦/٩) (١٦٣/١٩)، والصفدية (١٨٠/٢)، ودرء التعارض (٤٢/٧)، وبيان تلبيس الجهمية (٣٧٢/١)، والرد على المنطقيين (٢٩٧)، وانظر: مدارج السالكين (٤٣٧/٣)، والصواعق المرسلة (٣٣٥/١).

(١) البيتان من البسيط، الأول منهما منسوب إلى أبي العلاء المعري كما في معجم الأدباء (٤٣١/١)، والثاني لم أقف عليه إلا عند ابن القيم، ونقله شارح الطحاوية (٢٢٤) عنه -بدون نسبه-، والمقصود بالمغني هو كتاب المغني للقاضي عبد الجبار، وكذا كتاب العمد في أصول الفقه له أيضاً.

(٢) في (ش) زيادة: [من].

(٣) في (ش): [المتشككين].

(٤) القائل هو فخر الدين الرازي المتوفى سنة (٦٠٦)هـ، كما في طبقات الفقهاء (٢٦٣) للشيرازي، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء (٤٦٨)، ووفيات الأعيان (٢٥٠/٤)، وتاريخ الإسلام (٢١٧/٤٣)، وتاريخ ابن الوردي (١٢٥/٢)، وذكر شيخ الإسلام في درء التعارض (١٥٩/١) ومجموع الفتاوى (٧٢/٤) والرد على المنطقيين (٣٢١) وبيان تلبيس الجهمية (١٢٨/١) أنه أنشد الأبيات في غير موضع من كتبه ككتاب أقسام اللذات، وانظر الأبيات في: النبوات (٩٠، ١١٧)، ومنهاج السنة النبوية (٢٧١/٥)، ومجموع الفتاوى (١٠/٥)، واجتماع الجيوش الإسلامية (١٩٥)، والصواعق المرسلة (١٦٧/١).

(٥) في الأصل و(ش): [وقال]، والصواب ما أثبته من (ع)، والبيت هكذا في كثير من المصادر.

(١) لقد تأملت الطرق الكلامية(٢) والمناهج الفلسفية(٣) فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن أقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [سورة طه:٥] ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾(٤) [سورة فاطر:١٠] وأقرأ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [سورة الشورى:١١] ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [سورة طه:١١٠] فمن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي".

فهذا إنشاده وألفاظه في آخر كتبه(٥)، وهو أفضل/(٦) أهل زمانه على الإطلاق في علم الكلام والفلسفة، وكلام أمثاله في مثل ذلك كثير جداً، قد ذكرناه في كتاب الصواعق وغيره(٧)، وذكرنا (٨) قول بعض العارفين بكلام هؤلاء: "آخر أمر المتكلمين الشك وآخر أمر المتصوفين(٩) الشطح(١)"(٢).

---

(١) في (ش) زيادة: [ثم قال].

(٢) نسبة إلى علم الكلام، وقد اختلف في سبب تسميته بذلك، فقيل لأن أول مسألة خاض فيها هي مسألة كلام الله تعالى وخلق القرآن، وقيل لأن مباحثه كانت معنونة في كتب القدماء بقولهم: الكلام في كذا، وقيل لأنه مبني على كلام الرجال وآراءهم [انظر: تلبيس إبليس (١١٨)، ودرء التعارض (١٦٥/٧)، ولوامع الأنوار (٥٧/١)].

(٣) الفلسفة كلمة يونانية معناها محبة الحكمة، وكلمة الفيلسوف مكونة من كلمتين (فيلا) بمعنى محب و(سوفا) بمعنى الحكمة [انظر: الملل والنحل (٥٧/٢)، ومنهاج السنة النبوية (٣٥٩/١)، وتاريخ ابن الوردي (٧٢/١)].

(٤) الآية في (ش) إلى قوله سبحانه: [﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾].

(٥) ذكر ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (١٩٤) أنه صنف هذا الكتاب في آخر عمره، وأنه كتاب مفيد.

(٦) (٢٢/أ).

(٧) انظر: الصواعق المرسلة (١٦٦/١-١٧٠)، (٦٦٣/٢-٦٧٠)، (١٢٥٩/٤-١٢٦٣)، ومدارج السالكين (٤٨٧/٣)، وطريق الهجرتين (٣٦١).

(٨) انظر: الصواعق (١٣٤٧/٤).

(٩) فرقة اُختلف في نسبتها على أقوال كثيرة، فقيل: نسبة إلى لبس الصوف -وهو المعروف-، وقيل: نسبة إلى الصُّفَّة، وقيل: نسبة إلى الصفاء، وقيل: غير ذلك، نشأت في القرن الثاني الهجري، لها عدة طرق كالقادرية والرفاعية والأحمدية والدسوقية والشاذلية والنقشبندية، وتطور اعتقاد بعض المنتسبين إليها حتى وصل إلى القول بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود والفناء وإسقاط التكاليف الشرعية [انظر: مجموع الفتاوى (٣٥٨/١٠) (٦/١١، ١٦-٢٠)، ومختصر الفتاوى المصرية (٥٦٧-٥٦٨)، وفرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام (٨٦١/٣)، وتاريخ الفرق وعقائدها (١٥٧)].

والقرآن يوصلك إلى نفس اليقين في هذه المطالب التي هي أعلى مطالب العباد،

---

(١) الشطح كلمة عامية، وقد درجت كثيرا في كلام الصوفية، ومعناها عندهم الخطأ بسبب غلبة الحال عليه، ووصوله إلى السُكر، وعدم التمييز، قال ابن القيم في بدائع الفوائد (٤١٩/٢): "ومن هنا نشأت الشطحات الصوفية التي مصدرها عن قوة الوارد وضعف التمييز، فحكَّم صاحبها فيها الحال على العلم، وجعل الحكم له، وعزل علمه من البين"، وذكر الغزالي أن الشطح يطلق ويراد به أحد أمرين: **الأول** أنه الكلمات التي تُطلق وتحتمل معنيين، أحدهما محمود، والآخر مذموم، **والثاني**: الدعاوى الطويلة العريضة في العشق مع الله، والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة، حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد، وارتفاع الحجاب، والمشاهدة بالرؤية، والمشافهة بالخطاب، قال شيخ الإسلام في الاستقامة (١١٩/١): "وهو قسمان: شطح هو ظلم وعدوان -وإن كان من ظلم الكفار-، وشطح هو جهل وهذيان، والإنسان ظلوم جهول" [وانظر: الفرق بين الفرق (٢٤٧)، والتبصير في الدين (١٣٢)، وإحياء علوم الدين (٣٦/١)، والاستقامة (١١٩/١-١٢٠)، ومجموع الفتاوى (٣٤٠/١٠)، ومدارج السالكين (٣٩/٢-٤٠) (١٥٢/٣)، وموسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي (٤٩٧-٤٩٨)].

(٢) صرّح ابن القيم في الصواعق المرسلة (١٣٤٢/٤-١٣٥٠) بالقائل وهو ابن عقيل في كلام طويل نقله عنه، وعلق عليه في آخره فقال: "فهذا كلام من دخل مع المتكلمين إلى غايتهم، ووقف على نهايتهم، وخبر الكلام وقلاه، وعرف مداه ومنتهاه" وكذا نقله شيخ الإسلام في درء التعارض (٦١/٨-٦٨) وصرّح أنه من كتاب الفنون لابن عقيل، ونسبه لابن عقيل أيضاً ابن الجوزي في تلبيس إبليس (٤٥١)، وابن مفلح في الآداب الشرعية (٢٢٨/١)، وبين شيخ الإسلام كيفية انتهاء أمر المتكلمين للشك، والصوفية للشطح، ذلك أن المتكلمين غاية أمرهم عدم التصديق بالحق، فتجدهم يشكون في ثبوت واجب الوجود، أو يعجزون عن إقامة الدلالة عليه، وإذا لم يكن في الوجود واجب لم يوجد شيء، فتكون الموجودات كلها معدومات، فيفضى بهم سوء النظر إلى جعل الموجودات معدومات، أو تجويز كونها معدومات، وجعل الموجود الواجب ممكناً، وجعل الواجب ممكناً غاية التعطيل، فهم كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض، فانتهوا إلى الشك المنافي للعلم بعد أن كان لهم علم بالمشروع، فزاغوا فأزاغ الله قلوبهم، وكانوا مغضوباً عليهم، فأشبهوا اليهود لأنهم لهم نوع عقل وتمييز، وأما الصوفية فغاية أمرهم التصديق بالباطل، فهم يجعلون كل موجود واجب الوجود، ويجعلون وجود كل موجود هو نفس وجود واجب الوجود، فلا يكون في الوجود وجود هو عندهم مخلوق، ولا مصنوع، ولا مفتقر إلى غيره، ولا محتاج إلى سواه، فلا يكون في الوجود ما وجد بعد عدمه، ولا ما عدم بعد وجوده، وهذا فيه من جعل المعدوم موجوداً، ومن جعل الممكن واجباً، وجعل العبد رباً، وجعل المحدث قديماً، ما هو غاية الكفر والشرك والضلال، فهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، فطلبوا القرب من الله بما ابتدعوه في العبادة، فلم يحصل لهم إلا البعد منه، فإنه ما ازداد مبتدع اجتهاداً إلا ازداد من الله تعالى بعداً، وكانوا ضالين، فأشبهوا النصارى لأنهم جهال ينطلي عليهم المحال، حيث صدقوا الطامَّات التي لا يصدق بها إلا أجهل الخلق [انظر: درء التعارض (٢٦٤/٣-٢٦٥) (٣٤٥/٥-٣٤٦) ومنهاج السنة (١٦٩/٥-١٧٠)].

ولذلك أنزله من تكلم به، وجعله شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين.

وأما شفاؤه لمرض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والتزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة، والأمثال والقصص التي فيها أنواع العبر والاستبصار، فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه ومعاده، ويرغب عما يضره، فيصير القلب محباً للرشد مبغضاً للغي، فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة، فيصلح القلب فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها، فتصلح أفعاله الاختيارية الكسبية، كما يعود البدن بصحته وصلاحه إلى الحال الطبيعي، فيصير بحيث لا يقبل إلا الحق كما أن الطفل لا يقبل إلا اللبن:

وعاد الفتى كالطفل ليس [بقابلٍ](١) سوى الحقِّ شيئاً واستراحَتْ عواذِلُهْ(٢)

فيتغذى القلب من الإيمان والقرآن بما يُزكيه، ويُقويه، ويُؤيده، ويُفرحه، ويسره، ويُنشطه، ويُثبت ملكه، كما يتغذى البدن بما ينميه ويقويه، وكل من القلب والبدن محتاج(٣) إلى أن يترقى(٤)، فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح، فكما أن البدن محتاج(٥) إلى أن يربى(٦) بالأغذية المصلحة له، والحمية عما يضره، فلا ينمو إلا بإعطاء ما ينفعه، ومنع ما يضره، فكذلك القلب لا يزكو ولا ينمو ولا يتم صلاحه إلا بذلك، ولا سبيل له إلى الوصول إلى ذلك إلا من القرآن، وإن وصل إلى شيء منه من غيره فهو نزر يسير لا يحصل تمام المقصود،

---

(١) في الأصل: [يقابل]، وهو تصحيف، والصواب ما أثبته من النسختين، وعليه يدل سياق الكلام، وهو كذا في المحرر الوجيز (٢/٤٦٤).

(٢) البيت من الطويل لأبي خراش خويلد بن مرة الهذلي ﷺ يرثي ابن عمه الذي قتل يوم حنين، وقد وجدته في جميع المصادر منسوباً إليه بلفظ: "وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل"، إلا في سيرة ابن هشام (٥/١٤٣) ففيها: "كالشيخ"، وباقي البيت اختلفت المصادر في ذكره فجاء في شرح أشعار الهذليين للسكري (٣/١٢٢٣) وتفسير الثعلبي (٤/٢٩٣) "سوى العدل شيئاً" وجاء في سيرة ابن هشام، والكامل (٢/٣٩) للمبرد، وتفسير الطبري (١/٣٢٧)، والأغاني (١٠/٢١٨) "سوى الحق شيئاً"، ونسبه الثعلبي (٨/١٢١) في تفسيره إلى أبي ذؤيب خويلد بن خالد الهذلي ﷺ، وورد بلا نسبة في المحرر الوجيز (٢/٤٦٤) وفي آخره: "فاستراح العواذل".

(٣) في (ع): [يحتاج].

(٤) في (ع): [يتربى].

(٥) في (ع): [يحتاج].

(٦) في (ش): [يرقى].

وكذلك الزرع لا يتم إلا بهذين الأمرين، فحينئذ يُقال: زكا الزرع وكمُل، ولما كانت حياته ونعيمه لا تتم[١] إلا بزكاته وطهارته؛ لم يكن بد من ذكر[٢] هذا وهذا/[٣] فنقول[٤]:

(١) في (ش): [يتم].

(٢) سقط قوله: [ذكر] من (ش).

(٣) (٢٢/ب).

(٤) كلام ابن القيم عن أمراض القلوب وشفاؤها قريب جداً من كلام شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٠/٩٥-٩٦) بزيادات من ابن القيم، وكذلك بداية الباب الثامن.

الباب الثامن في [زكاة](١) القلب

الزكاة في اللغة: هي النماء، والزيادة في الصلاح، وكمال الشيء، يقال: زكا الشيء إذا نما(٢)، وقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [سورة التوبة:١٠٣] فجمع بين الأمرين: الطهارة والزكاة لتلازمهما(٣)، فإن نجاسة الفواحش والمعاصي في القلب؛ بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن، وبمنزلة الدَّغل(٤) في الزرع، وبمنزلة الخبث في الذهب والفضة والنحاس والحديد، فكما أن البدن إذا استفرغ من الأخلاط الرديئة تخلصت القوة الطبيعية منها فاستراحت فعملت عملها(٥) بلا معوق ولا ممانع فنما البدن؛ فكذلك القلب إذا تخلص من الذنوب بالتوبة فقد استفرغ من تخليطه، فتخلصت قوة القلب وإرادته للخير فاستراح من تلك الجواذب الفاسدة والمواد الرديئة، زكا(٦) ونما، وقوي واشتد، وجلس على سرير ملكه، ونفذ حكمه في رعيته، فسمعت له وأطاعت، فلا سبيل له إلى زكاته إلا بعد طهارته، كما قال تعالى ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟

---

(١) في الأصل: [زكاء]، والصواب ما أثبته من النسختين، بدليل أول الباب حيث عرّف الزكاة.

(٢) انظر: العين (٣٩٤/٥)، وغريب الحديث (١٨٤/١) لابن قتيبة، وتهذيب اللغة (١٧٥/١٠)، ومعاني القرآن وإعرابه (٦٠/٢) للزجاج، وتطلق على النماء والطهارة كما في معجم مقاييس اللغة (١٧/٣)، وتفسير الثعلبي (١٨٨/١)، والنهاية (٣٠٧/٢) لابن الأثير.

(٣) قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٣٨٧/١٥): "وأما الزكاة فهي متضمنة النماء والزيادة كالزرع، وإن كانت الطهارة قد تدخل في معناها، فإن الشيء إذا تنظف مما يفسده زكى ونما وصلح وزاد في نفسه، كالزرع ينفى من الدغل...والزكاة تتضمن الطهارة، فإن فيها معنى ترك السيئات، ومعنى فعل الحسنات، ولهذا تفسر تارة بالطهارة، وتارة بالزيادة والنماء، ومعناها يتضمن الأمرين، وإن قرن الطهارة معها في الذكر مثل قوله ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [سورة التوبة:١٠٣] فالصدقة توجب الطهارة من الذنوب، وتوجب الزكاة التي هي العمل الصالح".

(٤) هو الشجر الكثيف المتشابك الملتف [انظر: الاشتقاق (٢٥٧) لابن دريد، وجمهرة اللغة (٦٧٠/٢)، وتهذيب اللغة (٩١/٨)].

(٥) في (ع): [عليها].

(٦) في (ش): [فزكى].

﴿فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾(١) [سورة النور: ٣٠] فجعل الزكاء بعد غض البصر وحفظ الفرج، ولهذا كان غض البصر عن المحارم يوجب ثلاث فوائد، عظيمة الخطر جليلة القدر(٢):

إحداها: حلاوة الإيمان ولذته التي هي أحلى وأطيب وألذ مما صرف بصره عنه وتركه لله، فإن من ترك لله شيئاً عوضه الله خيراً منه(٣)، والنفس مُولَعة [بحب](٤) النظر إلى الصور الجميلة، والعين رائد القلب، فيبعث رائده لينظر ما هناك، فإذا أخبره بحسن المنظور إليه وجماله تحرك اشتياقاً إليه، وكثيراً ما [يَتْعَب ويُتْعِب](٥) رسوله ورائده، كما قيل(٦):

---

(١) الآية في (ع) إلى قوله سبحانه: [﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾] ثم قال: [الآية].

(٢) نقلها ابن القيم من شيخه كما في مجموع الفتاوى (١٥/٤٢٠-٤٢٧) (٢١/٢٥٢-٢٥٩) واختصرها، وذكر في الجواب الكافي (١٢٥-١٢٧) عشر فوائد لغض البصر، وفصّل هذه العشر في روضة المحبين (٩٧-١٠٤) ثم قال: "وفوائد غض البصر وآفات إرساله أضعاف أضعاف ما ذكرنا وإنما نبهنا عليه تنبيها".

(٣) دل عليه حديث عند أحمد في المسند ح(٢٣١٢٤) عن أبي قتادة وأبي الدهماء قالا: أتينا على رجل من أهل البادية فقلنا هل سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً؟ قال: نعم، سمعته يقول: ((إنك لن تدع شيئاً لله عز وجل إلا بدلك الله به ما هو خير لك منه)) أخرجه أحمد وهناد في الزهد ح(٩٣٨) كلاهما من طريق وكيع في الزهد (١/٤٠٣)، وفي لفظ آخر لأحمد ح(٢٠٧٥٨) فقال البدوي: ((أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلمني مما علمه الله تبارك وتعالى، وقال: إنك لن تدع شيئاً اتقاء الله جل وعز ألا أعطاك خيراً منه))، وقد أخرجه بهذا اللفظ ابن المبارك في الزهد ح(١١٦٨)، والحارث في مسنده ح(١١٠١) ومن طريقه ابن أبي شيبة ح(٩٩٤)، وغيرهم، قال ابن مفلح في الآداب الشرعية (٣/٢٨٠): "إسناد جيد"، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٢٩٦): "رواه كله أحمد بأسانيد ورجالها رجال الصحيح"، وقال البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة ح(٧٣١٨): "بإسناد الصحيح"، وقال الألباني في الضعيفة ح(٥): "سنده صحيح على شرط مسلم، وأخرجه الأصبهاني أيضا في (الترغيب) ثم روى له شاهداً من حديث أبي ابن كعب بسند لا بأس به في الشواهد"، وأما ما رواه أبو نعيم في الحلية (٢/١٩٦) من حديث ابن عمر بلفظ: ((ما ترك عبد شيئا لله لا يتركه إلا لله إلا عوضه منه ما هو خير له في دينه ودنياه)) فقال أبو نعيم: "هذا حديث غريب من حديث الزهري لم نكتبه إلا من هذا الوجه"، وقال الألباني في الضعيفة ح(٥) "موضوع".

(٤) في الأصل: [يحب]، والصواب ما أثبته من النسختين، لأن الولع يتعدى بالباء.

(٥) في الأصل: [يبعث ويُبعث]، والصواب ما أثبته من النسختين، بدليل قوله في البيت بعده: [أتعبتك المناظر].

(٦) البيتان من الطويل روى الدينوري في المجالسة وجواهر العلم برقم (٣٢٨٤) بسنده عن أبي الغصن الأعرابي قال: خرجت حاجاً؛ فلما مررت بقباء؛ تداعى أهلها، وقالوا: الصقيل الصقيل، فنظرت؛ فإذا جارية كأن وجهها سيف صقيل، فلما رمينا بالحدق؛ ألقت البرقع عن وجهها وتبسمت، فوالله ما رأيت شيئاً قط أحسن

وكنت متى[١] أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتْك المناظرُ
رأيتَ الذي لا كلّه أنتَ قادرٌ عليه، ولا عن بعضِه أنت صابرُ

فإذا كف الرائد عن الكشف والمطالعة؛ استراح القلب من كلفة الطلب والإرادة، فمن أطلق لحظاته دامت حسراته، فإن النظر يولد[٢] المحبة فيصير[٣] علاقة يتعلق بها/[٤] القلب بالمنظور إليه، ثم يقوى فيصير[٥] صبابةً؛ ينصب إليه القلب بكليته[٦]، ثم يقوى فيصير غراماً؛ يلزم القلب كلزوم الغريم الذي لا يفارق غريمه، ثم يقوى فيصير عشقاً، وهو الحب المفرط، ثم يقوى فيصير شغفاً، وهو الحب الذي قد وصل إلى شغاف القلب وداخله، ثم يقوى فيصير تتيماً، والتتيم التعبد، ومنه: تيَّمَهُ الحبُّ إذا عبَّده، وتيَّم الله عَبَدَ الله، فيصير القلب عبداً لمن لا يصلح أن يكون هو عبداً له، وهذا كله جناية النظر، فحينئذ يقع القلب في الأسر، فيصير أسيراً بعد أن كان ملكاً، ومسجوناً بعد أن كان مطلقاً، يتظلم من الطرف ويشكوه، والطرف يقول: أنا رائدك ورسولك وأنت بعثتني، وهذا إنما تبتلى به القلوب الفارغة من حب الله والإخلاص له، فإن القلب لابد له من التعلق بمحبوب، فمن لم يكن الله وحده محبوبه وإلهه ومعبوده؛ فلابد أن يتعبد قلبه لغيره، قال تعالى عن يوسف الصديق عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [سورة يوسف:٢٤] فامرأة العزيز[٧] لما كانت مشركة وقعت فيما وقعت فيه مع كونها ذات زوج،

منها، ثم أنشأت تقول البيتين، وانظر: مصارع العشاق (٢/٢١٠)، ومحاضرات الأدباء (٢/١٢٣)، والإنصاف في مسائل الخلاف (٢/٨٠٤)، ونقل هذا ابن القيم في روضة المحبين (٩٧) (٢٢٧) عن الأصمعي أنه رأى جارية في الطواف فقالت البيتين.

(١) في (ع): [إذا].

(٢) في (ع): [النظرة تولد].

(٣) في حاشية الأصل أن في نسخة أخرى: [فيبدأ]، وهي كذا في (ش)، وفي (ع): [فتبدأ].

(٤) (٢٣/أ).

(٥) في (ش): [فتصير].

(٦) سقط قوله: [بكليته] من (ش).

(٧) اختلف في اسمها فقيل هي: زليخا بنت يمليخا، وقيل زليخا بنت موسى، وقيل راعيل بنت رعائيل، وهي امرأة العزيز أطفير، قيل كان ابن عمها، وروى ابن إسحاق قال: "لما قال يوسف للملك ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ

ويوسف لما كان مخلصاً لله نجا من ذلك مع كونه شاباً عزباً غريباً مملوكاً.

الفائـــدة الثانيـــة في غـــض البصـــر: نور القلب وصحة الفراسة، قال أبو شجاع الكرماني(١): "من عمَّر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وكف نفسه عن الشهوات، وغض بصره عن المحارم، واعتاد أكل الحلال، لم تخطىء له فراسة"(٢)، وقد ذكر الله سبحانه قصة قوم(٣) لوط وما ابتلوا به، ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [سورة الحجر:٧٥] وهم المتفرسون(٤) ؛ الذين سلموا من النظر المحرم

ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة يوسف:٥٥]، قال الملك: قد فعلت، فولاه فيما يذكرون عمل إطفير، وعزل إطفير عما كان عليه، يقول الله ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ [سورة يوسف:٥٦] قال: فذكر لي -والله أعلم- أن إطفير هلك في تلك الليالي، وأن الملك الريان بن الوليد زوج يوسف امرأة إطفير راعيل، وأنها حين دخلت عليه قال: أليس هذا خيرًا مما كنت تريدين، قال: فيزعمون أنها قالت: أيها الصديق لا تلمني فإني كنت امرأة كما ترى حسناً وجمالاً، ناعمة في ملك ودنيا، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنت كما جعلك الله في حسنك وهيئتك فغلبتني نفسي على ما رأيت، فيزعمون أنه وجدها عذراء فأصابها، فولدت له رجلين: إفراثيم بن يوسف، وميشا بن يوسف" [انظر: تفسير مقاتل (١٤٤/٢)، تفسير الطبري (١٧٥/١٢، ٢٣٧) (٦/١٣)، وتفسير ابن أبي حاتم (٢١١٧، ٢١٢٠، ٢١٦١)، وتفسير الثعلبي (٢٠٥/٥)]

(١) أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرماني، كان من أبناء الملوك فزهد في الملك وتركه، انتسب إلى طريقة أبي حفص النيسابوري صحب أبا تراب النخشبي، وأبا عبيد البسري، ورد نيسابور ومعه أبو عثمان الحيري، قيل إن أصله من مرو، كان حاد الفراسة قلما تخطئ له فراسة، له كتب ورسائل منها (المثلثة) سماه (مرآة الحكماء)، توفي بعد (٢٩٩)هـ، بكرمان [انظر: طبقات الصوفية (١٠٤، ١٥٦)، وحلية الأولياء (٢٣٧/١٠)، والرسالة القشيرية (٥٩)، والمنتظم (١٢٦/١٣)].

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢٣٧/١٠)، والقشيري في الرسالة القشيرية (٥٩، ٢٦٨)، وذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة (٦٧/٤)، وشيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٥٧/٢١) (٣٩٦/١٥، ٤٢٥) وسماه في الموضع الأخير منها شجاع بن شاه الكرماني، وذكره ابن القيم في الجواب الكافي (١٢٦)، ومدارج السالكين (٤٨٤/٢)، والروح (٢٣٩)، وروضة المحبين (١٠١) وسماه في هذا الموضع شجاع الكرماني.

(٣) سقط قوله: [قوم] من (ع).

(٤) هذا قول مجاهد كما في تفسيره (٣٤٢/١) وكما رواه عنه الطبري (٤٥/١٤-٤٦)، وهو قول ابن أبي نجيح كما روى الطبري (٤٥/١٤)، وقال به الثوري في تفسيره (١٦١)، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن (٢٣٩)، والزجاج في معاني القرآن وإعرابه (١٨٤/٣)، والأزهري في تهذيب اللغة (٧٨/١٣)، والواحدي في الوجيز (٥٩٦/١)، وابن العربي في أحكام القرآن (١٠٦/٣)، وابن القيم في المدارج (٢٩/١)، وطريق

والفاحشة، وقال تعالى عقيب أمره للمؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة النور:٣٥] وسر هذا: أن الجزاء من جنس العمل، فمن غض بصره عما حرمه الله عليه؛ عوضه الله تعالى من جنسه ما هو خير منه، فكما أمسك نور بصره عن المحرمات، أطلق الله نور بصيرته وقلبه، فرأى به ما لم يره من أطلق بصره ولم يغضه عن محارم الله(١)، وهذا أمر يُحسُّه الإنسان من نفسه، فإن القلب/(٢) كالمرآة، والهوى كالصدأ فيها، فإذا خلصت من الصدأ؛ انطبعت فيها صور الحقائق كما هي عليه، وإذا صدئت لم ينطبع فيها صور المعلومات، فيكون علمه وكلامه من باب الخرص والظنون.

الفائدة الثالثة: قوة القلب وثباته وشجاعته، فيعطيه الله بقوته سلطان النصرة(٣)، كما

الهجرتين (٥٥٧)، وبدائع الفوائد (٦٣٦/٣)، والروح (٢٣٨)، وأما التفسير المرفوع للتوسم بالفراسة ففيه عدة أحاديث لا يصح شيء منها، كما في الموضوعات (٣٣١/٢) لابن الجوزي، وقيل المراد بالمتوسمين: الناظرون قاله مقاتل كما في تفسيره (٢٠٨/٢)، وعلقه البخاري (١٧٣٦/٤)، عن ابن عباس، وأخرجه الطبري (٤٦/١٤) عنه، كما أخرجه الطبري (٤٦/١٤) عن الضحاك، وقيل المراد: المعتبرون كما رواه الصنعاني (٣٤٩/٢) عن قتادة، والطبري (٤٦/١٤) عنه، وروى الطبري (٤٦/١٤) عن ابن زيد قال: المتفكرون والمعتبرون، قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١١٨/١٧): "وكل هذا صحيح فإن المتوسم يجمع هذا كله"، وقال ابن القيم في المدارج (٤٨٢/٢): "ولا تنافي بين هذه الأقوال، فإن الناظر متى نظر في آثار ديار المكذبين ومنازلهم؛ وما آل إليه أمرهم؛ أورثه فراسة وعبرة وفكرة".

(١) هذا الاستدلال أشار إليه شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٣٩٦/١٥، ٣٩٩، ٤٢٥-٤٢٦) (٢٥٧/٢١-٢٥٨)، وبيّنه ابن القيم في روضة المحبين (١٠١) حيث قال: "وجاء الحديث مطابقاً لهذا حتى كأنه مشتق منه، وهو قوله ((النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن غض بصره عن محاسن امرأة أورث الله قلبه نوراً)) الحديث"، وهذا الحديث الذي أشار إليه ابن القيم لم أجده بهذا اللفظ بل لفظه ((النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة، فمن تركها من خوف الله أثابه جل وعز إيماناً يجد حلاوته في قلبه)) فليس فيه ذكر النور، وقد أخرجه من حديث حذيفة رضي الله عنه الشهاب في مسنده ح(٢٩٢)، والحاكم في المستدرك ح(٧٨٧٥) وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه" وخالفه الذهبي فقال: "إسحاق واه، وعبد الرحمن هو الواسطي ضعفوه"، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٢٣/٣): "خرجاه من رواية عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي وهو واه"، وقال الألباني في الضعيفة (١٠٦٥): "ضعيف جداً".

(٢) (٢٣/ب).

(٣) في مجموع الفتاوى (٤٢٦/١٥)، وروضة المحبين (١٠٢) [البصيرة]، وفي مجموع الفتاوى (٢٥٨/٢١) [النصرة] كما وقع هنا، وفي الجواب الكافي (١٢٦) "سلطان البصيرة والحجة وسلطان القدرة والقوة".

أعطاه بنوره سلطان الحجة، فيجمع[١] له بين السلطانين، ويهرب الشيطان منه، كما في الأثر: ((إن الذي يخالف هواه يفرق الشيطان من ظله))[٢]، ولهذا يوجد في المتبع هواه من ذل النفس وضعفها ومهانتها ما جعله الله لمن عصاه، فإنه سبحانه جعل العز لمن أطاعه، والذل لمن عصاه، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة المنافقون:٨] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران:١٣٩] وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [سورة فاطر:١٠] أي: من كان يطلب العزة فليطلبها[٣] بطاعة الله[٤] بالكلم الطيب والعمل الصالح[٥]، وقال بعض

---

(١) في (ع): [فجمع].

(٢) هذا الأثر أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (النسخة المسندة) (٧٨/١) بسنده عن عمرو بن مالك قال: "قرأت في التوراة: إن سرك أن تحيا وتبلغ علم اليقين؛ فاحتمل في كل شيء أن تغلب شهوات الدنيا، فإنه من يغلب شهوات الدنيا يفرق الشيطان من ظله"، وقال السيوطي في الدر المنثور (٥٦٠/٣) "وأخرج الحكيم في نوادر الأصول عن أبي الجوزاء قال: قرأت..."، والذي في كتاب الحكيم الترمذي نسبته لعمرو بن مالك، وأخرج أبو نعيم في الحلية (٣٦٥/٢)، والقشيري في الرسالة القشيرية (١٧٩)، وابن الجوزي في ذم الهوى (٢٢) عن مالك بن دينار –من غير نسبة للتوراة– قال: "من غلب شهوة الحياة الدنيا فذلك الذي يفرق الشيطان من ظله" ، وجاء عن وهب بن منبه قال: "من جعل شهوته تحت قدمه فزع الشيطان من ظله" أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦٠/٤)، وذكره عنه الغزالي في الإحياء (٢١٠/٣)، وأخرجه ابن الجوزي في المنتظم (١٥٨/١٢) وفي ذم الهوى (٣١) من قول بشر بن الحارث.

(٣) في (ع): [فيطلبها].

(٤) سقط لفظ الجلالة: [الله] من (ش).

(٥) وهذا **قول قتادة** فيما أخرجه الطبري (١٢٠/٢٢)، وقال به السمرقندي في تفسيره (٩٥/٣)، وابن أبي زمنين في تفسيره (٢٦/٤)، والقرطبي في تفسيره (٣٢٨/١٤)، وظاهر كلام شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٣٢٧/٢٨)، واختاره ابن جزي في التسهيل (١٥٥/٣)، وابن القيم في الجواب الكافي (٣٨، ١٢٦)، وذكر السمعاني في تفسيره (٣٤٩/٤)، وابن الجوزي في زاد المسير (٤٧٧/٦) والقرطبي في تفسيره (٣٢٩/١٤) وغيرهم أنه **روى أنس** ــ عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((إن ربكم يقول كل يوم: أنا العزيز، فمن أراد عز الدارين فليطع العزيز))، والحديث أخرجه الخليلي في الإرشاد ح(٢٣٤) وقال: "هذا ليس إلا بهذا الإسناد، ليس عند أهل البصرة من حديث همام لا سيما عن قتادة، ولا يعرف له إسناد غيره"، والخطيب في تاريخ بغداد (٦٠/٦) (١٧١/٨)، وعنه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٧/١٢)، كما أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٧٦/١) وقال: "هذا حديث لا يصح، قال ابن حبان: داود –يعني ابن عفان– كان يضع الحديث على أنس

السلف: "الناس يطلبون العز بأبواب الملوك، ولا يجدونه إلا في طاعة الله"(١)، وقال الحسن: "وإن هملجت(٢) بهم البراذين(٣)، وطقطقت(٤) بهم البغال، إن ذل المعصية لفي قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه"(٥)، وذلك أن من أطاع الله فقد والاه، ولا يذل من والاه ربه(١)،

بن مالك، وكان لما وضع هذا سرق منه"، ثم ساقه من رواية قتادة عن أنس ﷺ، ثم قال: "وهذا من تلصيص سعيد بن هبيرة العامري، قال ابن عدي: كان يحدث بالموضوعات، وقال ابن حبان: كان يحدث بالموضوعات عن الثقات، لا يحل الاحتجاج به بحال"، [وانظر: اللآلىء المصنوعة (٢٧-٢٨) للسيوطي، وتنزيه الشريعة (١٣٨) للكناني، والضعيفة ح(٥٧٥٢) للألباني]، وفي معنى الآية **قولان آخران، الأول**: أن المراد: من كان يريد العزة والمنعة بعبادة الأصنام فهي لله جميعاً، قاله مجاهد كما في تفسيره (٥٣١/٢)، وأخرجه الطبري (١٢٠/٢٢)، واختاره مقاتل في تفسيره (٧٣/٣)، والطبري (١٢٠/٢٢) وقال: "والذي هو أولى الأقوال بالصواب عندي قول من قال من كان يريد العزة فبالله فليتعزز فلله العزة جميعاً، دون كل ما دونه من الآلهة والأوثان، وإنما قلت ذلك أولى بالصواب؛ لأن الآيات التي قبل هذه الآية جرت بتقريع الله المشركين على عبادتهم الأوثان، وتوبيخه إياهم، ووعيده لهم عليها، فأولى بهذه أيضا أن تكون من جنس الحث على فراق ذلك، فكانت قصتها شبيهة بقصتها، وكانت في سياقها"، وذكر الماوردي في تفسيره (٤٦٤/٤) أنه يدل عليه قوله تعالى ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾ [سورة مريم:٨١]، وهذا القول لا يخالف القول الأول، **والقول الثاني**: أن المراد: من كان يريد عِلْم العزة ولمن هي؟ فإنها لله جميعاً، واختاره الفراء في معاني القرآن (٣٦٧/٢) والثعلبي في تفسيره (١٠٠/٨).

(١) لم أقف على قائله، وانظره في: مجموع الفتاوى -منسوبًا إلى بعض الشيوخ- (٤٢٦/١٥) (٢٥٨/٢١)، وكذا في روضة المحبين (١٠٢)، وقال ابن القيم في طريق الهجرتين (١٨٧) "وفي بعض الآثار".

(٢) المراد به حسن سير الدابة وسرعتها [انظر: العين (١١٨/٤)، وجمهرة اللغة (١١٧٩/٢)، وتهذيب اللغة (٢٧٣/٦)]

(٣) هو الخيل الذي أبواه غير عربيين، يقال له البِرْذَوْن، وجمعها براذين، فإن كانا عربيين فيقال له العتيق وإن كانت أمه غير عربية فيسمى الهجين، وإن كان أبوه غير عربي فيسمى المقرف [انظر: المطلع على أبواب المقنع (٢١٧)، والمغني (٤٣٦/١٠)، وشرح الزركشي على مختصر الخرقي (١٨٨/٣)].

(٤) الطقطقة هي أصوات حوافر الدواب ويقال الدقدقة [انظر: جمهرة اللغة (٢١٣/١)، وتهذيب اللغة (٢١٨/٨)، والصحاح (١٥١٧/٤)].

(٥) أخرجه الطبري في المنتخب من ذيل المذيل (مطبوع في آخر تاريخ الأمم والملوك) (٦٣٨/١١) بسنده عن أبي موسى قال: "لما خرج الحسن من عند الحجاج قال: خرجت من عند أحيول قصير، يطبطب شعيرات له، أخرج إليَّ بناناً له قصيرة، قلما عرفت فيها الأعنَّة في سبيل الله عز وجل، أما والله إنهم وإن ركبوا البراذين، وصعدوا المنابر، إن ذل المعاصي لفي أعناقهم، أبى الله تعالى إلا أن يذل من عصاه، ما زال الله يريهم في أنفسهم العبر، ويرى المؤمنين فيهم المعتبر، اللهم أمته كما أمات سنتك"، ونسبه إلى الحسن البصري ابنُ عبد ربه في

كما في دعاء القنوت: ((إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت))[٢].

والمقصود[٣]: أن زكاة القلب موقوفة على طهارته، كما أن زكاة البدن موقوفة على استفراغه من أخلاطه الرديئة الفاسدة، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة النور:٢١] ذكر ذلك سبحانه عُقَيْبَ تحريم الزنا والقذف ونكاح الزانية، فدل على أن التزكيَّ هو باجتناب

العقد الفريد (١٦١/٣)، وشيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٤٢٦/١٥) (٢٥٨/٢١)، وفي الصارم المسلول (٦٩/٢)، وابن القيم في روضة المحبين (١٠٤)، والجواب الكافي (٣٨).

(١) في (ع): [الله].

(٢) أخرجه من حديث الحسن بن علي (بدون زيادة: ولا يعز من عاديت) أبو داود في أبواب قراءة القرآن وتحزيبه وترتيله باب القنوت في الوتر ح(١٤٢٥)، والترمذي في أبواب الوتر باب ما جاء في القنوت في الوتر ح(٤٦٤)، والنسائي كتاب قيام الليل وتطوع النهار باب الدعاء في الوتر ح(١٧٤٥)، وفي الكبرى ح(١٤٤٢)، وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها باب ما جاء في القنوت في الوتر ح(١١٧٨)، والدارمي في كتاب الصلاة باب الدعاء في القنوت ح(١٥٩١) والإمام أحمد ح(١٧١٨) ، والطيالسي ح(١١٧٩)، وعبد الرزاق ح(٤٩٨٤)، وابن أبي شيبة ح(٦٨٨٩)، وابن أبي عاصم في السنة ح(٣٧٤)، والبزار ح(١٣٣٦)، وأبو يعلى ح(٦٧٥٩)، وابن الجارود ح(٢٧٢)، وابن خزيمة ح(١٠٩٥)، وابن حبان ح(٧٢٢)، والطبراني في الكبير ح(٢٧٠٦)، والحاكم في المستدرك (٤٨٠١)، وأبو نعيم في الحلية (٢٦٤/٨)، والبيهقي في السنن الكبرى ح(٢٩٥٨)، والبغوي في شرح السنة ح(٦٤٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٦٤/١٣)، قال الترمذي: "هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبي الحوراء السعدي واسمه ربيعة بن شيبان ولا نعرف عن النبيﷺ في القنوت في الوتر شيئًا أحسن من هذا"، وقال ابن عبد البر في الاستذكار (٢٩٦/٢) "وهذا يرويه الحسن بن علي من طرق ثابتة أن رسول اللهﷺ علمه هذا الدعاء يقنت به في الصلاة"، وقال النووي في خلاصة الأحكام (٤٥٥/١) "إسناده صحيح"، وصححه الألباني في إرواء الغليل ح(٤٢٩)، وأما زيادة ((ولا يعز من عاديت)) فهي عند الطبراني في الدعاء ح(٧٣٧)، وفي الكبير (٢٧٠١)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ح(١١٧٧)، والبيهقي في الكبرى ح(٢٩٥٧)، وهذه الزيادة ضعفها النووي في خلاصة الأحكام (٤٥٧/١)، وذكر في روضة الطالبين (٢٥٣/١) إنها من زيادة العلماء، وقال ابن حجر في تلخيص الحبير (٢٤٩/١): "هذه الزيادة ثابته في الحديث"، وقال الألباني في صفة صلاة النبي ﷺ (٩٧٤/٣): "وبالجملة فهذه زيادة صحيحة ثابتة لا شك فيها".

(٣) من هنا رجع ابن القيم إلى الموضع السابق الذي كان ينقل منه في مجموع الفتاوى (٩٦/١٠-٩٨) بزيادات منه.

ذلك[١]، وكذلك قوله تعالى في الاستئذان على أهل البيوت: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [سورة النور:٢٨] فإنهم إذا أمروا بالرجوع لئلاّ يطلعوا على عورة لم يحب صاحب المنزل أن يطلع عليها؛ كان/[٢] ذلك أزكى لهم، كما أن رد البصر وغضه أزكى لصاحبه، وقال تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [سورة الأعلى:١٤-١٥]، وقال تعالى عن موسى في خطابه لفرعون ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [سورة النازعات:١٨]، وقال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [سورة فصلت:٦-٧]، قال أكثر المفسرين[٣] من السلف ومن بعدهم[٤]: هي التوحيد، شهادة أن لا إله إلا الله،

---

(١) قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٦٣٠/١٠) "فبين أن الزكاة إنما تحصل بترك الفاحشة"، وانظر: مجموع الفتاوى (٣٨٨/١٥).

(٢) (٢٤/أ).

(٣) عزاه ابن عطية في تفسيره (٤/٥) للجمهور، وعزاه شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٤٦/٧) إلى أكابر السلف، وقال ابن القيم في مفتاح دار السعادة (١٢٠/٢) "ولهذا فسرها غير واحد من السلف؛ بأن قالوا: ﴿لا يؤتون الزكاة﴾ لا يقولون لا اله إلا الله وحده لا شريك له"، وحكى ابنُ مفلح أيضاً في الفروع (٢٤٧/٢) أن هذا قول أكثر المفسرين، وذكر ابن كثير في تفسيره (١٦٤/٧) أن كثيراً من المفسرين يفسرونها بزكاة المال.

(٤) هذا القول مروي عن ابن عباس كما علقه عنه البخاري في صحيحه (١٧٠٨/٤)، ووصله ابن حجر في التغليق (٢١٨/٤) من طريق ابن أبي حاتم بسنده عن علي بن أبي طلحة، وأخرجه الطبري (٩٢/٢٤)، والطبراني في الدعاء برقم (١٥٣٨) كلاهما من طريق علي بن أبي طلحة، وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات برقم(٢٠٥) من طريق عكرمة عن ابن عباس، وروي أيضًا **عن ابن عمر** ــ كما ذكر النحاس في إعراب القرآن (٤٨/٤) وقال: "من أصح ما روي فيه وأحسنه استقامة إسناد"، وروي **عن عكرمة** كما أخرجه عنه الطبري (٩٢/٢٤) والطبراني في الدعاء برقم(١٥٣٩)، وأبو نعيم في الحلية (٣٣٣/٣)، واختاره من المفسرين النحاس في إعراب القرآن (٤٨/٤)، وابن أبي زمنين (١٤٦/٤)، وابن عطية (٥/٥) ونسبه لمجاهد والربيع، وقال:"ويرجح هذا التأويل أن الآية من أول المكي، وزكاة المال إنما نزلت بالمدينة، وإنما هذه زكاة القلب والبدن أي: تطهيره من الشرك والمعاصي"، واختاره شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٤٥/١٧-١٤٦)، وقال "وأصل الزكاة التوحيد والإخلاص كما فسرها أكابر السلف"، وقال في (٦٣٣/١٠): "والتحقيق: أن الآية تتناول كل ما يتزكى به الإنسان من التوحيد والأعمال الصالحة"، وانظر: مجموع الفتاوى (٢٩٩/٧) (٩٧/١٠)، والجواب الصحيح (٢٩/٦)، واختاره ابن القيم في مفتاح دار السعادة (١٢٠/٢)، والألوسي (٩٨/٢٤) ونسبه للطيبي، وقال: "وهو أوفق لتأليف النظم، وما ذهب إليه حبر الأمة إلا لمراعاة النظم"، واختاره السعدي (٧٤٥)، **والقول الثاني** في الآية: أن المراد بها زكاة المال بعدم دفعها أو الإقرار بوجوبها، وهو المروي عن قتادة كما

والإيمان الذي به يزكو القلب، فإنه يتضمن نفي إلهية[١] ما سوى الحق من القلب وذلك طهارة، وإثبات إلهيته سبحانه وهو أصل كل زكاة ونماء، فإن التزكي وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة، فإنما يحصل بإزالة الشر، فلهذا صار التزكي ينتظم الأمرين جميعاً[٢]، فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح هو التوحيد، والتزكية جعل الشيء زكياً، إما في ذاته وإما في الاعتقاد والخبر عنه، كما يقال: عدَّلته وفسَّقته، إذا جعلته كذلك في الخارج، أو في الاعتقاد والخبر، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [سورة النجم:٣٢] -هو على غير معنى ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [سورة الشمس:٩]- أي لا تخبروا بزكاتها، وتقولوا: نحن زاكون صالحون متقون[٣]، ولهذا قال عقيب ذلك: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [سورة النجم:٣٢]، وكان اسم زينب[٤] برّة فقالوا[١]:[٢] تزكي نفسها، فسماها رسول الله ﷺ

أخرجه الصنعاني (١٨٤/٣)، والطبري (٩٣/٢٤)، والمروي عن السدي كما أخرجه الطبري (٩٣/٢٤)، واختاره الطبري (٩٣/٢٤)، والسمرقندي (٢٠٨/٣)، وابن عبدالبر في الاستذكار (١٢٧/٣)، والواحدي في الوجيز (٩٥٢/٢)، وابن جزي في التسهيل (١١/٤)، والسبكي في طبقات الشافعية الكبرى (٤١/١)، وابن عاشور (٧٧/١٨) وقال: "واستعمال الإيتاء في إعطاء المال شائع في القرآن متعين أنه المراد هنا"، وغيرهم، وجمع ابن كثير بين القولين فقال: "وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مراداً، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال؛ فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يتعاطى هذا وهذا".

(١) سقط قوله: [إلهية] من (ع).

(٢) يعني نفي إلهية ما سوى الله تعالى، وإثبات الإلهية له سبحانه وحده، وهذا بنصه في مجموع الفتاوى (٩٧/١٠).

(٣) سقط قوله: [متقون] من (ع)، وانظر: تفسير الطبري (٦٩/٢٧)، وإعراب القرآن (٢٧٥/٤) للنحاس.

(٤) روى مسلم في كتاب الآداب باب استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن وتغيير اسم برة إلى زينب وجويرية ونحوهما ح(٢١٤٢) عن زينب بنت أم سلمة قالت: ((كان اسمي برة فسماني رسول الله ﷺ زينب، قالت: ودخلت عليه زينب بنت جحش واسمها برة، فسماها زينب))، فأما أم المؤمنين فهي زينب بنت جحش بن رئاب الأسدية، ابنه عمة رسول الله ﷺ فأمها أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم، كانت زوجة زيد بن حارثة، ثم طلقها، فزوّجها الله تعالى للنبي ﷺ سنة (٥)هـ، قال تعالى ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ [سورة الأحزاب:٣٧]، وكانت تفخر بهذا على أمهات المؤمنين، وفيها نزلت آية الحجاب، وهي أول نساء رسول الله ﷺ لحوقاً به توفيت سنة (٢١)هـ [انظر: السيرة النبوية (٥٨/٦)، والطبقات الكبرى (١٠١/٨)، وتاريخ خليفة بن خياط (١٤٩)]، وأما زينب بنت أم سلمة فهي: زينب بنت أبي سلمة بن عبد الأسد بن هلال من بني مخزوم، ربيبة رسول الله ﷺ، وهي ابنة أم المؤمنين أم سلمة، ولدتها أمها في الحبشة، كانت من أفقه أهل زمانها، توفيت بالمدينة سنة (٧٣)هـ [انظر: السيرة النبوية (١٦٩/٢)، والطبقات الكبرى (٤٦١/٨)،

زينب[٣] وقال: ((الله أعلم بأهل البر منكم))[٤]، وكذلك قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ [سورة النساء:٤٩] أي يعتقدون زكاءها[٥] ويخبرون به[٦]، كما يزكي المزكي الشاهد فيقول عن نفسه ما يقول المزكي فيه، ثم قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [سورة النساء:٤٩] أي هو الذي يجعله زاكياً ويخبر بزكاته[٧]، وهذا بخلاف قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [سورة الشمس:٩] فإنه من باب قوله: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [سورة النازعات:١٨] أي تعمل بطاعة الله فتصير زاكياً، ومثل[٨] قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [سورة الأعلى:١٤].

وقد اختلف في الضمير المرفوع في قوله: ﴿زَكَّىٰهَا﴾ فقيل: هو لله؛ أي: أفلحت نفس زكاها الله، وخابت نفس دساها، وقيل: إن الضمير يعود على فاعل أفلح وهو (مَنْ) سواء

والاستيعاب (١٨٥٥/٤)].

(١) في النسختين: [فقال]، وهو لفظ ابن الجعد، ولفظ الأصل عند ابن راهويه وابن حبان، ولفظ الصحيحين: [فقيل].

(٢) في (ع) زيادة: [لا]، ولم أقف عليها في روايات الحديث.

(٣) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة في كتاب الأدب باب تحويل الاسم إلى اسم أحسن منه ح(٥٨٣٩)، ومسلم في كتاب الآداب باب استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن وتغيير اسم برة إلى زينب وجويرية ونحوهما ح(٢١٤١).

(٤) أخرجه مسلم من حديث زينب بنت أم سلمة رضي الله عنها في كتاب الآداب باب استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن وتغيير اسم برة إلى زينب وجويرية ونحوهما ح(٢١٤٢).

(٥) في (ش): [زكاها].

(٦) هذه الآية نزلت في اليهود وفي معنى تزكيتهم لأنفسهم عدة أقوال، منها ما ذكره ابن القيم وهو الذي اختاره الطبري في تفسير الآية كما في تفسيره (١٢٨/٥)، وأخرجه عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، وروى نحوه ابن أبي حاتم (٩٧٢/٣) عن الضحاك، واختاره الزجاج في معاني القرآن وإعرابه (٦٠/٢)، والسمرقندي (٣٣٤/١)، والقرطبي (٢٤٦/٥) وقال: "وهذا أحسن ما قيل فإنه الظاهر من معنى الآية"، واختاره الخازن (٥٤٥/١)، وهو نص ما قاله شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٣٨٩/١٥) من كون ذلك اعتقادًا وإخبارًا، وانظر: (٩٨/١٠) (١٩٩/١٦) وغيرهم.

(٧) انظر: معاني القرآن وإعرابه (٦٠/٢) للزجاج، ولباب التأويل (٥٤٥/١) للخازن.

(٨) في (ع): [ومثله].

كانت موصولة أو موصوفة، فإن الضمير لو عاد على[١] الله سبحانه لقال: قد أفلح من زكاه، وقد خاب من دساه، والأولون يقولون: (مَنْ) وإن كان/[٢] لفظها مذكراً؛ فإذا وقعت على مؤنث؛ جاز إعادة الضمير عليها بلفظ المؤنث مراعاة للمعنى، وبلفظ المذكر مراعاة للفظ، وكلاهما من الكلام الفصيح، وقد وقع في[٣] القرآن اعتبار لفظها ومعناها، فالأول كقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ [سورة الأنعام:٢٥] فأفرد الضمير، والثاني كقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [سورة يونس:٤٢].

قال المرجحون[٤] **للقول الأول**:[٥] يدل على صحة[٦] قولنا ما رواه أهل السنن من[٧] حديث ابن أبي مليكة[٨] عن عائشة[٩] رضي الله عنها قالت: أتيت ليلة فوجدت رسول الله ﷺ يقول: ((رب أعط نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها))[١٠]

---

(١) في (ع): [إلى].

(٢) (٢٤/ب).

(٣) سقط قوله: [في] من (ع).

(٤) في (ع): [المرجحوه].

(٥) في (ع) زيادة: [ومما].

(٦) في (ش) زيادة بالحاشية: [عود الضمير إلية وتقوية].

(٧) في النسختين: [في].

(٨) عبد الله بن عبيد الله بن عبد الله بن أبي مليكة زهير بن عبد الله بن جدعان، أبو بكر التيمي، روى عن ابن عباس وعائشة وابن الزبير وعقبة بن الحارث، وكان ثقة كثير الحديث، ولاه ابن الزبير قضاء الطائف، ولم يكن له عقب، توفي بمكة سنة (١١٧)هـ، [الطبقات الكبرى (٤٧٢/٥)، والطبقات (٢٨١) لابن خياط، والثقات (٢/٥) لابن حبان].

(٩) أم عبد الله عائشة بنت أبي بكر الصديق عبد الله بن أبي قحافة بن عامر بن عمرو، أمها أم رومان بنت عمير بن عامر من بني كنانة، أم المؤمنين زوج رسول الله ﷺ، وأحب نسائه إليه، تزوجها بمكة وهي بنت سبع سنين، وبنى بها بالمدينة وهي بنت تسع سنين أو عشر، ولم يتزوج رسول الله ﷺ بكراً غيرها، زوجه إياها أبوها أبو بكر، وأصدقها رسول الله ﷺ أربعمائة درهم، توفي رسول الله ﷺ في بيتها، وعمرها (١٨) سنة، توفيت بالمدينة سنة (٥٨)هـ [انظر: السيرة النبوية(٥٧/٦)، والطبقات الكبرى (٥٨/٨)، والطبقات (٣٣٣) لابن خياط].

(١٠) ذكر ابن القيم في التبيان في أقسام القرآن (١٦) الراوي عن ابن أبي مليكة وهو نافع بن عمر، ولم يعزُ الحديث لأحد، والحديث بهذا اللفظ لم أقف عليه في السنن، وإنما أخرجه الإمام أحمد في المسند ح(٢٥٧٩٨)، وكذا

فهذا الدعاء كالتفسير لهذه الآية(١)، وأن الله هو الذي يزكي النفوس فتصير زاكية، فالله هو

عزاه إليه ابن كثير في تفسيره (٤١٣/٨) ولم يقع من طريق ابن أبي مليكة، بل هو من طريق وكيع عن نافع – يعني ابن عمر– عن صالح بن سعيد عن عائشة ﵂ إنها فقدت النبي ﷺ من مضجعه، فلمسته بيدها فوقعت عليه وهو ساجد وهو يقول ((رب أعط نفسي تقواها زكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها)) قال العراقي في المغني عن حمل الأسفار ح(١٢٤١): "بإسناد جيد"، وقال الهيثمي في المجمع (١٢٨/٢): "رواه أحمد ورجاله ثقات"، وقال في موضع آخر (١١٠/١٠): "رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير صالح بن سعيد الراوي عن عائشة وهو ثقة"، وقال الألباني في تمام المنة ح(٢٠٨): "وإسناده ضعيف لأن فيه صالح بن سعيد لم يرو عنه غير نافع بن عمر، فهو في عداد المجهولين وإن وثقه ابن حبان...والدعاء المذكور صحيح ثابت عنه ﷺ مطلقا غير مقيد بالسجود، وكذلك أخرجه مسلم في حديث لزيد بن أرقم في دعائه ﷺ الذي كان يدعو به"، وحديث زيد بن أرقم أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ح(٢٧٢٢)، قال زيد: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول ((كان يقول: اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم، وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها))، وقد أخرجه –بالإسناد الذي أشار إليه ابن القيم– الواحدي في البسيط (رسالة دكتوراه غير منشورة بتحقيق/ د.نورة الورثان) (٨٠٩/٢) من طريق نافع بن عمر عن ابن أبي مليكة قال: قالت عائشة رحمها الله: انتبهت ليلة فوجدت...، وكذا السمعاني في تفسيره (٢٣٣/٦)، والظاهر –والله أعلم– أن رواية ابن أبي مليكة عن عائشة وردت في قصة مشابهة لهذه، فوهم بعض المخرجين وساقه من طريق ابن أبي مليكة، خاصة أن مخرج الحديث واحد وهو عائشة ﵂، وهذا الحديث أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود ح(٤٨٥) من طريق عطاء عن ابن أبي مليكة عن عائشة ﵂ قالت: افتقدت النبي ﷺ ذات ليلة فظننت أنه ذهب إلى بعض نسائه فتحسست ثم رجعت فإذا هو راكع أو ساجد يقول: ((سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت)) فقلت: بأبي أنت وأمي إني لفي شأن وإنك لفي آخر.

(١) وهناك نصوص أخرى استدل بها من اختار هذا القول، فمنها: حديث سعيد بن أبي هلال أنّ رسول الله ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ وقف ثمّ قال: ((اللّهمّ آتِ نفسي تقواها أنت وليّها ومولاها وزكّها أنت خير من زكّاها))، وهذا الحديث أخرجه الثعلبي في تفسيره (٢١٤/١٠)، وذكره الواحدي في البسيط (رسالة دكتوراه غير منشورة بتحقيق/ د.نورة الورثان) (٨٠٨/٢)، والرازي (١٧٦/٣١)، وهو مرسل، ومنها حديث ابن عباس ﵄ قال: كان رسول الله ﷺ إذا مر بهذه الآية ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ وقف ثم قال: ((اللهم آت نفسي تقواها أنت وليها ومولاها وخير من زكاها)) وقد أخرجه الطبراني في الكبير ح(١١١٩١)، قال الهيثمي في المجمع (١٣٨/٧): "رواه الطبراني وإسناده حسن"، وعزاه السيوطي في الدر (٥٢٩/٨) إلى ابن المنذر وابن مردويه، ومنها حديث أبي هريرة ﵁ قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ قال: ((اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من

المُزكي، والعبد هو المُتزكي، والفرق بينهما فرق ما بين الفاعل والمطاوع.

قالوا: والذي جاء في القرآن من إضافة الزكاة إلى العبد إنما هو بالمعنى الثاني دون الأول، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [سورة الأعلى:١٤]، وقوله: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [سورة النازعات:١٨] أي: تقبل تزكية الله لك فتزكى.

قالوا: وهذا هو الحق فإنه لا مفلح(١) إلا من زكاه الله.

قالوا: وهذا اختيار ترجمان القرآن(٢) ابن عباس، فإنه قال في رواية علي بن أبي طلحة(٣) وعطاء(٤) والكلبي(١): "قد أفلح من زكى الله نفسه". وقال ابن زيد(٢): "قد

زكاها، أنت وليها ومولاها))، وقد أخرجه ابن أبي عاصم في السنة ح(٣١٩)، وابن أبي حاتم (٣٤٣٦/١٠)، والشهاب في مسنده ح(١٤٨١)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٥٢٩/٨) إلى ابن مردويه، وحسنه الألباني في ظلال الجنة في تخريج السنة ح(٣١٩)، ومنها حديث عن ابن عباس ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في قول الله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ قال النبي ﷺ: ((أفلحت نفس زكاها الله))، وقد أخرجه ابن أبي حاتم (٣٤٣٧/١٠)، قال ابن كثير (٤١٢/٨) "وجويبر هذا هو ابن سعيد، متروك الحديث، والضحاك لم يلق ابن عباس"، وعزاه السيوطي في الدر (٥٣١/٨) إلى أبي الشيخ وابن مردويه والديلمي.

(١) في (ع): [يفلح].

(٢) وصفه ابن مسعود ﷺ بهذا الوصف، فقال: "نعم ترجمان القرآن ابن عباس"، أخرج هذا الأثر أبو خيثمة في كتاب العلم برقم (٤٨)، وابن أبي شيبة برقم (٣٢٢٢٠)، والإمام أحمد في فضائل الصحابة برقم (١٥٥٦)، وغيرهم.

(٣) أبو الحسن علي بن أبي طلحة الوالبي، اسم والده سالم بن مخارق مولى العباس، روى عن مجاهد، وأبي الوداك، وراشد بن سعد، وأخذ تفسير ابن عباس عن مجاهد، فلم يذكر مجاهداً، بل أرسله عن ابن عباس، وروى عنه بديل بن ميسرة، ومعمر، ومعاوية بن صالح، من أهل حمص بالشام، توفي سنة (١٤٣)هـ [انظر: التاريخ الكبير (٢٨١/٦)، والجرح والتعديل (١٩١/٦)، وميزان الاعتدال (١٦٣/٥)] وقول ابن عباس أخرجه الطبري في تفسيره (٢١١/٣٠) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال:"قد أفلح من زكى الله نفسه"، كما أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة برقم (٩٥٥) والبيهقي في القضاء والقدر برقم (٣٥٥) وفيه زيادة "وقد خاب من دس الله نفسه فأضلها"، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٥٣١/٨) إلى "حسين في الاستقامة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم".

(٤) عطاء بن أبي رباح، أبو محمد المكي، كان عبداً أسودَ، من مولدي الجند من مخاليف اليمن، نشأ بمكة وهو مولى آل أبي ميسرة بن أبي خثيم الفهري، واسم والده أسلم، سمع أبا هريرة وابن عباس وأبو سعيد وجابر وابن عمر، كان أعلم أهل زمانه بمناسك الحج، توفي سنة (١١٤)هـ [انظر: الطبقات الكبرى (٤٦٧/٥)، والتاريخ الكبير (٤٦٣/٦)، والجرح والتعديل (٣٣٠/٦)] وقول عطاء لم أقف عليه مسندًا عن عطاء، ونسبه له الرازي

أفلح من زكى الله نفسه"(٣)، واختاره ابن جرير(٤).

قالوا: ويشهد لهذا القول(٥) أيضاً قوله في أول السورة: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [سورة الشمس:٨].

قالوا: وأيضا فإنه سبحانه أخبر أنه خالق النفس وصفاتها، وذلك هو معنى [التسوية](٦).

في التفسير الكبير (١٧٥/٣١).

(١) محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث بن عبد الحارث، أبو النضر الكلبي، ضعيف في الرواية، تركه يحيى بن معين، وابن مهدي، روى عن أبي صالح باذام، والشعبي، وروى عنه الثوري وابن جريج، ولم يصح له سماع من ابن عباس، كان عالماً بالتفسير وأنساب العرب، توفي بالكوفة سنة (١٤٦)هـ [انظر: الطبقات الكبرى (٣٥٨/٦)، والتاريخ الكبير (١٠١/١)، والجرح والتعديل (٢٧٠/٧)]، وقول الكلبي أخرجه عبد بن حميد كما قال السيوطي في الدر المنثور (٥٣٠/٨) بلفظ: "أفلح من زكاه الله، وخاب من دساه الله"، وروى الثعلبي (٢١٤/١٠) بسنده عن محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح مولى أم هانئ قال: "قد أفلحت نفس زكّاها الله ، وخابت نفس أفسدها الله عزّ وجلّ".

(٢) عبد الرحمن بن زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب، كان كثير الحديث، ضعيفاً جداً، روى عن أبيه، وأبي حازم، وروى عنه ابن وهب، وابن أبي مريم، توفي بالمدينة سنة (١٨٢)هـ، [انظر: الطبقات الكبرى (٤١٣/٥)، والطبقات (٢٧٥) لابن خياط، والتاريخ الكبير(٢٨٤/٥)].

(٣) أخرجه الطبري (٢١٢/٣٠).

(٤) قال الطبري في تفسيره (٢١١/٣٠): "قد أفلح من زكّى الله نفسه، فكثّر تطهيرها من الكفر والمعاصي، وأصلحها بالصالحات من الأعمال، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل"، وكذا اختاره مقاتل كما في تفسيره (٤٨٨/٣)، والفراء (٢٦٧/٣)، والزجاج (٣٣٢/٥)، والسمرقندي (٥٦٢/٣)، وابن أبي زمنين (١٣٧/٥)، والثعلبي (٢١٣/١٠)، والواحدي في الوجيز (١٢٠٧/٢)، والسمعاني (٢٣٣/٢)، والبغوي (٤٣٩/٨)، وابن عطية (٤٨٨/٥)، والرازي (١٧٥/٣١)، والقرطبي (٧٧/٢٠)، والخازن (٢٥٢/٧)، وابن عادل في اللباب (٣٦٢/٢٠)، .

(٥) انظر هذا الاستدلال في البسيط للواحدي (رسالة دكتوراه غير منشورة بتحقيق/ د.نورة الورثان) (٨٠٦/٢)، والتفسير الكبير (١٧٥/٣١).

(٦) في الأصل: [النشوية]، والصواب ما أثبته من النسختين، لأن ابن القيم يشير إلى الآية السابقة لهذه الآيات وهي قوله تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [سورة الشمس:٧]، ومن أدلة هذا القول ما أشار إليه ابن القيم رحمه الله في التبيان (١٥) حيث قال: "قال أرباب هذا القول: قد أقسم الله بهذه الأشياء التي ذكرها؛ لأنها تدل على وحدانيته، وعلى فلاح من طهره وخسارة من خذله، حتى لا يظن أحد أنه هو الذي يتولى تطهير نفسه

قال أصحاب القول الآخر: ظاهر الكلام ونظمه الصحيح يقتضي أن يعود الضمير على (مَنْ)، أي: أفلح من زكى نفسه، هذا هو المفهوم المتبادر إلى الفهم، بل لا يكاد يفهم غيره، كما إذا قلت: هذه جارية قد ربح من اشتراها، وصلاة قد سعد من صلاها، وضالة قد خاب من آواها، ونظائر ذلك(١).

قالوا: والنفس مؤنثة، فلو عاد الضمير على الله سبحانه لكان وجه الكلام: قد أفلحت نفس زكاها، أو أفلحت من زكاها، لوقوع (مَنْ) على النفس، قالوا:/(٢) وإن جاز تفريغ الفعل من [التاء](٣) لأجل لفظ (مَنْ) -كما يقول(٤): قد(٥) أفلح من قامت منكن- فذاك حيث لا يقع اشتباه وإلباس(٦)، فإذا وقع الاشتباه لم يكن بدٌّ من ذكر ما يزيله(٧).

قالوا: و(مَنْ) موصولة بمعنى (الذي)، ولو قيل: قد أفلح الذي زكاها الله؛ لم يكن جائزاً؛ لعود الضمير المؤنث على (الذي) وهو مُذكر(٨).

وإهلاكها بالمعصية؛ من غير قدر سابق وقضاء متقدم، قالوا: وهذا أبلغ في التوحيد الذي سيقت له هذه السورة... قالوا: وفي هذا ما يبين أن الأمر كله له سبحانه، فإنه هو خالق النفس وملهمها الفجور والتقوى، وهو مزكيها ومدسيها، فليس للعبد في الأمر شيء، ولا هو مالك من أمر نفسه شيئًا"، وانظر: البسيط للواحدي (رسالة دكتوراه غير منشورة بتحقيق/ د.نورة الورثان) (٨٠٨/٢).

(١) نص على كونه الظاهر من معنى الآية شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٣٠/١٦)، وابن جزي في التسهيل (٢٠٢/٤)، وأبو حيان في البحر المحيط (٤٧٥/٨)، والألوسي في روح المعاني (١٤٥/٣٠).

(٢) (٢٥/أ).

(٣) في الأصل: [الهاء]، والصواب ما أثبته من النسختين، لدلالة السياق، والمراد التاء في (أفلحت).

(٤) في (ع): [يقال].

(٥) سقط قوله: [قد] من (ش).

(٦) في النسختين: [التباس].

(٧) انظر: هذا الدليل في مجموع الفتاوى (٦٢٦/١٠-٦٢٧)، والتبيان في أقسام القرآن (١٦).

(٨) انظر: هذا الدليل في مجموع الفتاوى (٦٢٧/١٠)، والتبيان في أقسام القرآن (١٦)، وكل هذه الأدلة من جهة اللفظ، ومن الأدلة المتعلقة باللفظ لهذا القول، ما ذكره مكي في مشكل إعراب القرآن (٨٢٠/٢) وشيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٦٢٦/١٠) وهو أن (من) اسم موصول، ولا بد فيه من عائد يرجع إليه، فلو كان المعنى قد أفلح من زكاه الله؛ لم يبق في الجملة ضمير يعود على (من)، فإن الضمير على هذا يعود على الله، وليس هو (من)، وضمير المفعول يعود على النفس المتقدمة، فلا يعود على (من) لا ضمير الفاعل ولا المفعول، فتخلو الصلة من عائد، وهذا لا يجوز، وقال شيخ الإسلام: "وخفاء هذا على من قال به من النحاة عجب".

قالوا: وهو سبحانه قصد نسبة الفلاح إلى صاحب النفس إذا زكى نفسه، ولهذا فرغ الفعل من [التاء](١)، وأتى بـ(مَنْ) التي هي بمعنى (الذي)(٢).

وهذا الذي عليه جمهور المفسرين(٣) حتى أصحاب ابن عباس(٤)، وقال قتادة: "﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ من عمل خيراً زكاها بطاعة الله"(٥)، وقال أيضاً: "قد أفلح(١) من زكى

---

(١) في الأصل: [الهاء]، والصواب ما أثبته من النسختين، لدلالة السياق، والمراد التاء في (أفلحت).

(٢) هذا الدليل المتعلق بالمعنى بيّنه شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٦٢٨/١٠) قال: "والمقصود هنا أمر الناس بتزكية أنفسهم والتحذير من تدسيتها، كقوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ فلو قدر أن المعنى: قد أفلح من زكى الله نفسه لم يكن فيه أمر لهم ولا نهي، ولا ترغيب ولا ترهيب، والقرآن إذا أمر أو نهى لا يذكر مجرد القدر، فلا يقول: من جعله الله مؤمنا، بل يقول ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ إذ ذكر مجرد القدر في هذا يناقض المقصود، ولا يليق هذا بأضعف الناس عقلا، فكيف بكلام الله؟! ألا ترى أنه في مقام الأمر والنهي والترغيب والترهيب يذكر ما يناسبه من الوعد والوعيد والمدح والذم، وإنما يذكر القدر عند بيان نعمه عليهم، إما بما ليس من أفعالهم، وإما بإنعامه بالإيمان والعمل الصالح، ويذكره في سياق قدرته ومشيئته، وأما في مَعْرِضِ الأمر فلا يذكره إلا عند النعم كقوله ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ﴾ الآية فهذا مناسب، وقوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾، وهذه الآية من جنس الثانية لا الأولى"، وانظر: التبيان (١٦) لابن القيم، وزاد ابن القيم في التبيان (١٧) دليلاً متعلقًا بالمعنى وهو كون القول الثاني يستلزم القول الأول دون العكس، لأن العبد إذا زكى نفسه ودساها؛ فإنما يزكيها بعد تزكية الله لها بتوفيقه وإعانته، وإنما يدسيها بعد تدسية الله لها بخذلانه، والتخلية بينه وبين نفسه.

(٣) لم أقف على من نسبه لجمهور المفسرين، وقد اختاره أبو بكر الأنباري في الزاهر (٤٢٣/١)، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن (٥٣٠)، وابن سيدة في المحكم (٤٠٥/٨)، والقرافي في الفروق (٧٥/٣)، وشيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٦٢٥/١٠) وذكر أنه المراد قطعا لفظًا ومعنى، وذكر في موضع آخر (٢٣١/١٦) ضعف القول الثاني ومخالفته للظاهر، وبعده عن نهج البيان الذي ألف عليه القرآن، كما اختار هذا القول أيضًا ابن جزي (٢٠٢/٤)، وأبو حيان (٤٧٥/٨)، وابن القيم في مدارج السالكين (٣٨١/٢)، الجواب الكافي (٥٢)، والفوائد (١٧٧)، والتبيان في أقسام القرآن (١٤)، وابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢٢٠)، وابن مفلح في المبدع (٢٩٠/٢)، والشوكاني (٤٤٩/٥)، وابن عاشور (٣٧١/٣٠)، والسعدي (٩٢٦)، وجوّز الألوسي (١٤٤/٣٠-١٤٥) المعنيين في الآية.

(٤) ومنهم مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة فقد روى الطبري (٢١١/٣٠) عنهم في قوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [سورة الشمس:٩] قالوا: "من أصلحها".

(٥) أخرجه الطبري (٢١١/٣٠).

نفسه بعمل صالح"(٢)، وقال الحسن: "قد أفلح من زكى نفسه فأصلحها وحملها على طاعة الله، وقد خاب من أهلكها وحملها على معصية الله"(٣).

قال ابن قتيبة(٤): "يريد قد(٥) أفلح من زكى نفسه، أي: أنماها وأعلاها بالطاعة والبر والصدقة واصطناع المعروف...وقد خاب من دساها أي نقصها وأخفاها بترك عمل البر، وركوب المعاصي، والفاجر أبداً خَفِيُّ المكان، زَمِرُ(٦) المروءة، غامض الشخص، ناكس الرأس، فمرتكب الفواحش قد دس نفسه وقمعها، ومصطنع المعروف(٧) شهر نفسه ورفعها،

---

(١) في (ع) زيادة: [من أفلح].

(٢) أخرجه الصنعاني في تفسيره (٣/٣٧٦)، وزاد: "﴿وقد خاب من دساها﴾ قال: أثمها وأفجرها"، وأخرجه بدون الزيادة الطبري في تفسيره (٣٠/٢١٢)، وكذا أخرج الصنعاني (٣/٣٦٧) عن قتادة في تفسير قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [سورة الأعلى:١٤] قال: "بعمل صالح".

(٣) قال السيوطي في الدر المنثور (٨/٥٣٠) "وأخرج عبد بن حميد عن الحسن في الآية: قد أفلح من زكى نفسه وأصلحها وخاب من أهلكها وأضلها"، ووقفت على رواية أخرى مناقضة لهذا الاختيار، فقد روى ابن بطة العكبري في الإبانة (القدر) برقم (١٦٧٤) واللالكائي برقم (٩٥٤) بسنديهما عن يونس بن عبيد عن الحسن قال: "قد أفلحت نفس أتقاها الله وقد خابت نفس أغواها"، وممن اختار هذا القول من السلف الربيع، قال السيوطي في الدر المنثور (٨/٥٣٠) "وأخرج عبد بن حميد عن الربيع في الآية يقول: أفلح من زكى نفسه بالعمل الصالح، وخاب من دسَّى نفسه بالعمل السيئ".

(٤) في تأويل مشكل القرآن (٣٤٤) بتصرف، وابن قتيبة هو: عبد الله بن مسلم بن قتيبة، أبو محمد الكاتب الدينوري، ولد ببغداد، وأقام بدينور مدة فنسب إليها، ثم سكن بغداد وحدث بها عن إسحاق بن راهويه وأبي حاتم السجستاني، وروى عنه ابنه أحمد وعبيد الله بن عبد الرحمن السكري، كان ثقة ديناً فاضلاً، وهو صاحب التصانيف المشهورة والكتب المعروفة، منها (غريب القرآن) و(غريب الحديث) و(تأويل مشكل القرآن) و(مشكل الحديث) وغير ذلك، توفي سنة (٢٧٦)هـ [انظر: تاريخ بغداد (١٠/١٧٠)، والأنساب (٤/٤٥٢)، والمنتظم (١٢/٢٧٦)].

(٥) سقط قوله: [قد] من النسختين، وكذا سقطت من تأويل مشكل القرآن (٣٤٤).

(٦) في جميع النسخ: [زمن] والصواب ما أثبته من تأويل مشكل القرآن (٣٤٤)، وكذا نقلها عن ابن قتيبة الواحدي في البسيط (رسالة دكتوراه غير منشورة بتحقيق/ د.نورة الورثان) (٢/٨١١)، والقرطبي في تفسيره (٢٠/٧٧)، والمراد به قليل المروءة [انظر: جمهرة اللغة (٣/١٢٥١)، ومعجم مقاييس اللغة (٣/٢٣)، والمحكم (٩/٣٩)].

(٧) في (ع) زيادة: [قد]، وليس في تأويل مشكل القرآن (٣٤٥).

وكانت أجواد العرب تنزل الرُّبا ويفاع[١] الأرض لتشهر أماكنها للمعتفين[٢]، وتوقد النيران[٣] في الليل للطارقين، وكانت اللئام تنزل الأولاج[٤] والأطراف والأهضام[٥]؛ لتخفي أماكنها على الطالبين، فأولئك أعلوا أنفسهم وزكوها، وهؤلاء أخفوا أنفسهم ودسوها وأنشد[٦]:

وبَوَّأْتَ[٧] بَيْتَكَ في مَعْلَمٍ رَحيبِ المَبَاءةِ[٨] والمسرحِ
كفيتَ العُفَاةَ[٩] طِلابَ القِرَى ونَبْحَ الكلابِ لمُستنبحِ"[١٠]

فهذان قولان مشهوران في الآية، وفيها قول ثالث: أن المعنى: خاب من دس نفسه مع الصالحين وليس منهم، حكاه الواحدي[١١]، قال: "ومعنى هذا: أنه أخفى نفسه في

---

(١) في النسخ الثلاث [بقاع] والصواب (يفاع)، لعطفها على الرُّبا، وهكذا وقع في التبيان في أقسام القرآن (١٥)، وقريب منه ما في -المصدر الذي نقل عنه ابن القيم- تأويل مشكل القرآن (٣٤٥) (أيفاع)، والمراد بها التل المنيف، وكل شيء مرتفع [انظر: العين (٢٦١/٢)، وتهذيب اللغة (١٤٨/٣)، وعجم مقاييس اللغة (١٥٧/٦)].

(٢) المعتفين والعُفاة جمع عافي وهم الأضياف وطُلاب المعروف [انظر: العين (٢٥٨/٢)، وغريب الحديث (٢٩٧/١) لأبي عبيد، وتهذيب اللغة (١٤٢/٣)].

(٣) في (ع): [النار]، وفي تأويل مشكل القرآن (٣٤٥) كالأصل: [النيران].

(٤) جمع وَلَجَة وهي زوايا الوادي ومعاطفه، وكل موضع يستتر فيه من شِعْب أو كهف ونحوه [انظر: تهذيب اللغة (١٣١/١١)، والمحيط في اللغة (١٨٠/٧) للطالقني، ولسان العرب (٣٩٩/٢)].

(٥) جمع هِضْم وهي ما اطمئن من الأرض، سميت بذلك لغموضها [انظر: إصلاح المنطق (٢٢)، وجمهرة اللغة (٩١٢/٢)، ومعجم مقاييس اللغة (٦٦/٥)].

(٦) البيتان من المتقارب نسبهما الجاحظ في الحيوان (١٣٤/٥) إلى الطائي، وليسا في ديوانه، ووردا بلا نسبة في الحيوان أيضًا (٣٨١/١)، وورد الأول منهما بلا نسبة في المعاني الكبير (٤٠٩/١) لابن قتيبة.

(٧) في (ش): [بواب]، وفي (ع): [بؤت]، وفي تأويل مشكل القرآن (٣٤٥) كالأصل.

(٨) في النسختين: [المياه]، وفي تأويل مشكل القرآن (٣٤٥) كالأصل: [المَبَاءة]، وهو الصواب، والمَبَاءة هي المنزل [انظر: العين (٤١٢/٨)، وجمهرة اللغة (١٠٨٦/٢)، وتهذيب اللغة (٤٢٦/١٥)].

(٩) العفاة هم الأضياف وطلاب المعروف [انظر: العين (٢٥٨/٢)، ومعجم مقاييس اللغة (٦١/٤)، ولسان العرب (٧٤/١٥)].

(١٠) انظر: تأويل مشكل القرآن (٣٤٤-٣٤٥).

(١١) أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري الواحدي، أصله من ساوه مدينة بين الري وهمذان، كان عالماً بالنحو واللغة والتفسير له مصنفات منها في التفسير (البسيط) و(الوسيط) و(الوجيز) فيها فوائد جليلة، وفيها غث

الصالحين، يري الناس أنه منهم، وهو مُنْطوٍ على غير ما ينطوي عليه الصالحون"(١)، وهذا وإن كان حقاً في نفسه؛ لكن في كونه هو المراد بالآية [نظر](٢)، وإنما يدخل في الآية بطريق العموم، فإن الذي يدس/(٣) نفسه بالفجور إذا خالط أهل الخير دس نفسه فيهم والله أعلم(٤).

وكثير من المنقولات الباطلة، ومنه أخذ الغزالي هذه الأسماء، والواحدي تلميذ الثعلبي، وكان أخبر منه بالعربية، لكن الثعلبي فيه سلامة من البدع، وإن ذكرها تقليدًا لغيره [انظر: طبقات الفقهاء (٢٣٦) للشيرازي، ومعجم الأدباء (٥٥٦/٣)، ومجموع الفتاوى (٣٨٦/١٣)].

(١) انظر: البسيط (رسالة دكتوراه غير منشورة بتحقيق/ د.نورة الورثان) (٨١٢/٢) بنحوه، وهذا القول حكاه الواحدي عن ابن الأعرابي حينما سأله ثعلب عن معنى الآية، وقد نقله عن ابن الأعرابي -قبل الواحدي- الأزهري في تهذيب اللغة (١٩٨/١٢)، وذكره القرطبي (٧٧/٢٠)، وابن منظور في اللسان (٨٢/٦)، وابن القيم في التبيان (١٥) وغيرهم.

(٢) زيادة من النسختين، وسقطت من الأصل، ولا بد من هذه الزيادة ليستقيم الكلام.

(٣) (٢٥/ب).

(٤) الخلاف في هذه المسألة متعلق بمسألة عقدية أشار إليها بعض المفسرين، ذلك أن المعتزلة القدرية اختاروا القول برجوع الضمير إلى المُزكي وهو العبد، بناء على مذهبهم في الأفعال، وقولهم: إن العبد يخلق فعل نفسه، وفي هذا يقول القاضي عبدالجبار المعتزلي في متشابه القرآن (٦٩١): "لا يصح أن يتعلق به في أنه تعالى فعل بها ما صارت به زكية؛ لأن المراد بذلك: قد أفلح من زكى نفسه، وقد ذكر النفس من قبل"، وقال الزمخشري في الكشاف (٧٦٤/٤) "وأما قول من زعم أنّ الضمير في زكّى ودسى لله تعالى، وأنّ تأنيث الراجع إلى (من) لأنه في معنى النفس؛ فمن تعكيس القدرية، الذين يورّكون على الله قدراً هو بريء منه ومتعال عنه، ويحيون لياليهم في تمحل فاحشة ينسبونها إليه"، كما تمسك الجبرية بالآية التي قبلها وهي قوله تعالى ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ بناء على مذهبهم في إنكار قدرة العبد واختياره، والقول بأنه مجبور، والحق بين وسط بين الطائفتين، وفي الآيتين رَدٌّ على كلتا الطائفتين، وبيان لصحة مذهب أهل السنة والجماعة الذين أثبتوا خلق الله تعالى لأفعال العباد، مع إثباتهم لقدرة العبد ومشيئته الداخلة تحت مشيئة الله سبحانه، قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٤٣/١٦) "فقوله تعالى ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ إثبات للقدر بقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ وإثبات لفعل العبد بإضافة الفجور والتقوى إلى نفسه، ليعلم أنها هي الفاجرة والمتقية، وإثبات للتفريق بين الحسن والقبيح والأمر والنهي بقوله: ﴿فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ وقوله بعد ذلك ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ إثبات لفعل العبد والوعد والوعيد بفلاح من زكى نفسه وخيبة من دساها، وهذا صريح في الرد على القدرية المجوسية، وعلى الجبرية للشرع أو لفعل العبد وهم المكذبون بالحق"، وقال في (٢٣٠/١٦):-متحدثًا عن السورة- "وختم القسم بالنفس التي هي آخر المخلوقات، فإن الله خلق آدم يوم الجمعة آخر المخلوقات، وبيّن أنه خالق جميع أفعالها، ودل على أنه خالق جميع أفعال ما سواها، وهو سبحانه -مع ما ذكر من عموم خلقه

لجميع الموجودات على مراتبها حتى أفعال العبد المنقسمة إلى التقوى والفجور- بيّن انقسام الأفعال إلى الخير والشر، وانقسام الفاعلين إلى مفلح وخائب، سعيد وشقي، وهذا يتضمن الأمر والنهي، والوعد والوعيد، فكان في ذلك رد على القدرية المجوسية الذين يخرجون أفعال العباد عن خلقه وإلهامه، وعلى القدرية المشركية الذين يبطلون أمره ونهيه ووعده ووعيده احتجاجا بقضائه وقدره"، وانظر: التبيان (١٦-١٧)، ومما ينبغي التنبه له أنه ليس كل من اختار القول الثاني يقول بقول المعتزلة في القدر، قال الألوسي في روح المعاني (١٤٥/٣٠) "فيكون المعنى قد أفلح من زكاه الله فتزكى، ومع هذا كله لا ينبغي أن ينكر أن المعنى هو السابق إلى الذهن، وما ذكر من الأخبار ليس نصاً في تعيين المعنى الآخر، نعم هو نصٌّ في تكذيب الزمخشري في زعمه أنه من تعكيس القدرية يعني بهم أهل السنة والجماعة فتأمل".